

سُورَةُ الْمَعَارِجِ

حِينَ يَصْعَدُ الْقَلْبُ فَوْقَ ضِيقِ الْأَرْضِ

رَحْلَةً فِي الصَّبْرِ الْجَمِيلِ، وَهَلَعَ الْإِنْسَانِ، وَمَقَامَاتِ النَّجَاةِ



تأليف: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

سُورَةُ الْمَعَارِجِ

حِينَ يَصْعَدُ الْقَلْبُ فَوْقَ ضِيقِ الْأَرْضِ

رحلةٌ في الصبر الجميل، وهلع الإنسان، ومقامات النجاة

تأليف: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

مقدمة

حين تكون الأرض ضيقةً وتبقى المعارج مفتوحة

ليست سورة المعارج وصفاً ليوم القيامة فحسب، ولا حديثاً عن عذاب يأتي في آخر الطريق، وإنما هي سورة تكشف الإنسان وهو محصور بين زمنين: زمن الأرض الذي يستبطئ فيه وعد الله، وزمن السماء الذي لا تتأخر فيه الأشياء لحظةً عن ميقاتها؛ وبين هذين الزمنين يولد امتحان الإيمان كله، لأن الإنسان يرى بعينه القربة فيظن البعيد مستحيلاً، بينما يريه الوحي بعين الحقيقة فيراه قريباً، ومن هنا تبدأ السورة بسائلٍ يستعجل العذاب وتنتهي بأناس كانوا يعدون بيومٍ حتى صار اليوم حاضراً فوق رؤوسهم، وكأن المسافة بين أول السورة وآخرها هي المسافة بين الاستهزاء بالحقيقة والوقوف عارياً أمامها.

وفي قلب السورة صورةٌ بدیعة تكاد تختصر رسالة الكتاب كله: المعارج؛ طرق الصعود، ومدارج الارتفاع، والمقامات التي تعرج فيها الملائكة والروح إلى الله، وهي صورةٌ تقابل ثقل الإنسان حين تشده الأرض إلى شہوته وخوفه وماله وجزعه ومنعه، فكأن السورة تريد

سُورَةُ الْمَعَارِجِ | حِينَ يَصْعَدُ الْقَلْبُ فَوْقَ ضَيْقِ الْأَرْضِ

أن تقول: في عالمٍ تتجه فيه الملائكة صعوداً، لا يليق بقلب المؤمن أن يعيش هبوطاً دائماً؛ إن للروح معارجها كما للملائكة معارجها، ومعراج القلب يبدأ من الصبر، ثم يمر بالصلاة، ويتطهر بالبذل، ويستنير بالتصديق بالآخرة، ويحرس نفسه بالعفة والأمانة والشهادة، حتى ينتهي إلى قوله سبحانه: ﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾، وكأن كل خصلة من خصال المؤمنين درجةً في سلمٍ طويل ينقل الإنسان من هلهة الفطري إلى كرامته الإيمانية.

وسوف غمضي مع السورة آيةً آيةً، لا لنستبدل بالتفسير تداعياتٍ بعيدة، بل لنصغي إلى حركة المعنى وهي تتشكل داخل السياق؛ سنرى كيف ينتقل الخطاب من المستهزئ بالعذاب إلى مشاهد انهيار الكون، ثم من انهيار الكون إلى انهيار العلاقات البشرية أمام الفزع، ثم من نار الآخرة إلى النار الصغيرة الكامنة في طبيعة الإنسان الهلوع، ثم تفتح الصلاة فجأةً باب النجاة في قلب هذا الاختناق، ويتتابع بناء الشخصية المؤمنة خصلةً خصلةً، قبل أن تعود السورة إلى المستهزئين فتسقط آخر أوهامهم: وهم الاستحقاق، وهم الخلود، وهم الإفلات.

سورة المعارج لا تسأل الإنسان فقط: هل تؤمن بالقيامة؟ بل تسأله سؤالاً أشد قرباً: ما الذي فعلته القيامة في تكوينك؟ هل جعلتك أهدأ أمام الشر؟ أكرم عند الخير؟ أوفى بالعهد؟ أصدق في الشهادة؟ أحفظ للحدود؟ أديم على الصلاة؟ فإذا لم تتحول الآخرة من خبرٍ زرده

سُورَةُ الْمَعَارِجِ | حِينَ يَصْعَدُ الْقَلْبُ فَوْقَ ضِيقِ الْأَرْضِ

إلى ميزانٍ يعيد هندسة النفس، بقي التصديق في أطراف اللسان ولم ينزل إلى أعماق

الإنسان.

وهنا يبدأ الصعود.

الفصل الأول

حين يستعجل الإنسان ما لا يعرف ثقله

الآيات: 1 - 7

الآية الأولى

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾

تبدأ السورة بفعلٍ صغيرٍ في صورته، هائلٍ في دلالته: سأل؛ إنسانٌ يقفُ على أرضٍ محدودة، داخل عمرٍ محدود، بعقلٍ لا يرى إلا طرف اللحظة، ثم يتعامل مع العذاب الإلهي كما لو كان خبراً قابلاً للسخرية، فيسأل عنه سؤال المستبعد أو المستعجل، وفي هذا المشهد تنكشف جرأة الجهل حين يطمئن إلى الإهمال، فالإنسان إذا طال عليه ستر الله ربما قلب الستر حجةً على عدم العقوبة، وإذا امتد به الأمان ظن أن الأمان طبيعة الوجود لا منحة مؤقتة، وإذا تأخر الجزاء في مقاييسه الصغيرة تصور أن الوعيد قد سقط من حساب السماء؛ ولهذا لم تقل الآية: سأل سائل عن عذابٍ ممكن، بل قالت: ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾، نجاء وصف العذاب سابقاً لكل جدل، كأن القرآن لا يدخل مع المستهزئ في مناقشة احتمال وقوعه،

سُورَةُ الْمَعَارِجِ | حِينَ يَصْعَدُ الْقَلْبُ فَوْقَ ضَيْقِ الْأَرْضِ

وإنما ينقله مباشرة من ساحة الاحتمال إلى حقيقة محسومة: إنه واقع، وأنت لا تستعجل إلا شيئاً يسير إليك بينما تظن أنك تسير بعيداً عنه.

وفي كلمة ﴿وَأَقِمْ﴾ ثقلٌ عجيب، فهي لا تترك للنفس مساحةً تستريح فيها إلى التأجيل؛ ليس العذاب حكايةً معلقة في أفق مجهول، بل حقيقة قد كُتِبَ لها أن تقع، وكل ما نسميه في حياتنا «مستقبلاً» ليس عند الله موضع تردد، وإنما هو موعدٌ لم يأت دورنا بعد لرؤيته، ومن هنا يتعلم المؤمن أن غياب الشيء عن عينه لا يعني غيابه عن الحقيقة، وأن من أخطر أوهام الإنسان أن يجعل بصره معياراً للوجود: فما لم يره ظنه غير موجود، وما لم يقع في لحظته ظنه لن يقع أبداً.

إن أول ما تفعله السورة بالقلب أنها تنتزع منه سلطان اللحظة؛ فلا الحاضر هو كل الزمان، ولا التأخير إلغاء، ولا الإمهال نجاة، ولا ضحكة المستهزئ شهادة بأن السماء صامتة، فكم من حقيقة ضحك منها أصحابها لأنها لم تكن قد طرقت أبوابهم بعد، فلما جاءت لم تجد في أفواههم كلمة واحدة من كلمات السخرية القديمة.

﴿لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾

ثم تضيق الدائرة بعد أن كان الحديث عن عذابٍ واقع، فيذكر من يقع عليهم: ﴿لِّلْكَافِرِينَ﴾، ثم تأتي العبارة التي تهدم آخر جدارٍ يبنيه الإنسان بينه وبين الجزاء: ﴿لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾؛ ففي الدنيا يعيش الإنسان داخل منظومةٍ كاملة من الدوافع والحواجز والوسائط، يدفع المرض بطبيب، والفقر بمال، والخصومة بجاه، والخوف بقوة، والتهمة بحجة، والخطر بعشيرة، حتى تنشأ في أعماقه عادةٌ نفسية خفية تجعله يتصور أن لكل مأزقٍ باباً خلفياً يمكن الإفلات منه، فإذا جاءت الآخرة انهارت فلسفة «الباب الخلفي» كلها، لأن الذي يأتي من الله لا يوجد في الكون شيء يقف بينه وبين مراد الله.

وليس الهول في وقوع العذاب وحده، بل في انقطاع القدرة على دفعه؛ فالإنسان يحتمل المصيبة أحياناً لأن داخله يحتفظ باحتمال النجاة، ولكن حين يسقط الاحتمال نفسه يصبح اليقين جزءاً من العذاب، ومن هنا كانت الآخرة دار انكشاف كامل: لا حيلة يختبئ المرء خلفها، ولا نفوذ يؤجل الحكم، ولا مال يشتري مخرجاً، ولا قوة تعيد ترتيب النتيجة، فالسلطان يومئذٍ للحقيقة وحدها.

سُورَةُ الْمَعَارِجِ | حِينَ يَصْعَدُ الْقَلْبُ فَوْقَ ضَيْقِ الْأَرْضِ

وهذه الآية، وإن جاءت في الكافرين، تربي قلب المؤمن على ألا يجعل أسباب الدنيا آلهة صغيرة في داخله؛ فالسبب يعمل لأن الله أذن له أن يعمل، ويدفع لأن الله أذن له أن يدفع، فإذا جاء أمرٌ لا دافع له سقطت الأسباب جميعاً كما تسقط الأوراق اليابسة أمام ريح واحدة، ولهذا فإن معرفة المؤمن بأن لله أقداراً ليس لها دافع لا تصنع فيه اليأس، بل تصنع فيه العبودية، فيتعلم ألا يستند إلى شيء استناداً ينسيه رب الأشياء.

الآية الثالثة

﴿مَنْ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾

هنا يظهر الاسم الذي يمنح السورة فضاءها كله: ﴿ذِي الْمَعَارِجِ﴾؛ فالعذاب الذي لا دافع له ليس قوةً مجهولةً منقلبةً، وإنما ﴿مِنْ اللَّهِ﴾، وحين يذكر المصدر يسقط العبث من المشهد، لأن ما يأتي من الله يأتي بعلمٍ وحكمةٍ وعدل، ثم يوصف سبحانه بأنه ذو المعارج، فتنتقل الصورة فجأةً من أرضٍ يستعجل عليها المستهزون إلى سماءٍ مفتوحة الدرجات والطرائق والمقامات، وكأن الوحي يرفع عين الإنسان من التراب الذي حاصره إلى علوٍ لا يحيط به خياله.

سُورَةُ الْمَعَارِجِ | حِينَ يَصْعَدُ الْقَلْبُ فَوْقَ ضَيْقِ الْأَرْضِ

والمعارج في ظاهر معناها مصاعد العلو، غير أن حضورها هنا يسكب في السورة معنى يتجاوز الصورة المكانية إلى المعنى التربوي: فالله الذي جعل في خلقه معارج تصعد فيها الملائكة، جعل في شريعته معارج تصعد فيها الأرواح؛ وليس كل صعودٍ انتقالاً من موضع إلى موضع، بل قد يكون الصعود انتقالاً من خوفٍ إلى توكل، ومن هلعٍ إلى سكينة، ومن شحٍّ إلى بذل، ومن غفلةٍ إلى صلاة، ومن عبودية اللحظة إلى يقين الآخرة، ولذلك ستبدو صفات المؤمنين في منتصف السورة وكأنها درجاتٌ متتابعةٌ في معراجٍ أخلاقي، كلما ارتقى الإنسان درجة تحرر من ثقلٍ من أثقال الأرض.

والجميل أن ذكر المعارج يأتي في سياق تهديد، ولكنه يترك وراءه نافذةً من رجاء؛ فإن رب المعارج لم يخلق الإنسان ليبقى في سفح نفسه، بل شرع له طريق الارتفاع، والمشكلة ليست أن الإنسان خُلِقَ وفيه ضعف، وإنما أن يرضى بالضعف منزلاً دائماً، وأن يقيم في جزعه ومنعه وهواه كما لو لم يكن فوقه طريق.

﴿تَعْرِجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾

يفتح القرآن فجأة نافذة لا تتسع لها مقاييس الإنسان: خمسون ألف سنة؛ وما إن يسمع القلب هذا الامتداد حتى يشعر بضحالة استعجاله القديم، فما قيمة أيامنا القليلة أمام مقاييس زمن كهذا؟ وما قيمة أن يقول مستهزئ: متى يأتي؟ وهو لم يفهم أصلاً نوع الزمن الذي يتحدث عنه الوحي؟ إن كثيراً من اعتراضات الإنسان على القدر تنشأ من أنه يحمل ساعة يده ثم يريد أن يضبط بها مواعيد السماء؛ يحسب عمره القصير مقياساً لكل شيء، فإذا تأخر عنه ما يريد قال: طال، وإذا لم يمر ما وعد به قال: أين هو؟ بينما يريه القرآن على الخروج من سجن الزمن الشخصي إلى رحابة التقدير الإلهي.

﴿تَعْرِجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾؛ حركة صاعدة تملأ المشهد، وكأن الكون الذي نراه ساكناً في أعيننا ممتلئاً في حقيقته بالحركة والطاعة والتنفيذ، ملائكة تعرج، وأوامر تنفذ، وأقدار تمضي، وعالم الغيب ليس فراغاً وراء الحواس، بل عالم مشحون بالتدبير، وأنت في اللحظة التي تظن فيها أن لا شيء يحدث ربما تكون من فوقك حركة لا تدرك منها شيئاً، ولذلك فإن

سُورَةُ الْمَعَارِجِ | حِينَ يَصْعَدُ الْقَلْبُ فَوْقَ ضِيقِ الْأَرْضِ

الإيمان بالغيب ليس إضافةً ثقافيةً إلى نظرتنا للوجود، بل هو تحريرٌ للعقل من وهم أن المرئي هو الوجود كله.

أما ذكر الروح مع الملائكة فيمنح المشهد جلالاً خاصاً، ويجعل الصعود نفسه جزءاً من نظام عظيم لا ندرك كلفيته ولا نخطط بحقيقته، فنقف حيث وقف النص، نؤمن بما أخبر الله، ولا نحمل الغيب على مقاييس المحسوس، لأن من أدب التدبر ألا يتحول الشوق إلى المعنى إلى جرأةٍ على ما لم يكشفه الله.

ثم إن الآية تضع أمام الإنسان مفارقةً موجعة: هناك ملائكة تعرج، وهناك بشر يتشاقلون؛ هناك مخلوقات طبعها الطاعة، وإنسانٌ أُعطي الإرادة ثم قد يستخدمها في الهبوط، ولهذا تصبح حياة الإيمان كلها مقاومةً للجاذبية الداخلية التي تشد الروح إلى أسفل، حتى يتعلم القلب كيف يصعد وهو ما يزال يمشي فوق الأرض.

الآية الخامسة

﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾

بعد خمسين ألف سنة، تأتي كلمة واحدة كأنها الجسر بين ضخامة الزمن وصغر العمر: ﴿فَاصْبِرْ﴾؛ فالجواب على الزمن الطويل ليس أن تفهم جميع أسرارهِ، بل أن تعرف كيف

سُورَةُ الْمَعَارِجِ | حِينَ يَصْعَدُ الْقَلْبُ فَوْقَ ضَيْقِ الْأَرْضِ

تعيش موقعك منه، وأنت لن تتحكم في موعد الوعد، لكنك تستطيع أن تتحكم في هيئة قلبك وهو ينتظر الوعد، ومن هنا لا يأمر الله نبيه ﷺ بمجرد الصبر، بل يقول: ﴿صَبْرًا جَمِيلًا﴾، والجمال هنا من أعجب الأوصاف، لأن الألم بطبيعته يخدش الملامح الداخلية للإنسان، فيجعله سريع الشكوى، حاد المزاج، ضيق الروح، متوتر العلاقة بمن حوله، فجاء الإيمان لا لينع الألم من الوصول إلى القلب، وإنما لينع الألم من تشويه القلب.

الصبر الجميل ليس ألا نتألم، فالنبي بشرٌ يتأذى ويضيق ويحزن، وإنما ألا تتحول آلامك إلى اعتراضٍ على الله، وألا يتحول انتظارك إلى سوء ظن، وألا تدفعك قسوة الطريق إلى قسوة الخلق، وألا تجعل من جرحك رخصةً تجرح بها الآخرين؛ أن تحمل الألم بكرامة العبودية، وتبقي وجه قلبك متجهًا إلى الله ولو كانت الأشياء من حولك تقول لك إن الفرج بعيد.

ولم يقل سبحانه: فاصبر حتى يأتي العذاب، بل فصل الأمر عن الموعد؛ لأن الصبر المؤمن لا يتغذى على معرفة متى تنتهي المحنة، وإنما يتغذى على معرفة من يديرها، وهذه إحدى أنصج درجات اليقين: أن تستطيع السير دون أن يعطيك الله الخريطة كاملة، لأن معرفتك بالقائد أغنتك عن معرفة كل المنعطفات.

سُورَةُ الْمَعَارِجِ | حِينَ يَصْعَدُ الْقَلْبُ فَوْقَ ضَيْقِ الْأَرْضِ

كم من صبرٍ أفسدته مراقبة الساعة، وكم من دعاءٍ أتعبه سؤال: متى؟ وكم من قلبٍ كان يستطيع احتمال الوجد لولا أنه اشترط على الله موعداً للفرج؛ فجاءت ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ لتعيد ترتيب الداخل كله: لست مسؤولاً عن ساعة الوصول، أنت مسؤول عن جمال الطريق.

الآية السادسة

﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾

هنا يكشف أصل الخلل: يرونه؛ القضية قضية رؤية قبل أن تكون قضية زمن، فهم لا يقولون فقط إن العذاب بعيد، بل يرونه كذلك، أي إن المشكلة في المنظار الذي ينظرون من خلاله إلى الحقيقة؛ وقد يرى الإنسان الشيء قريباً وهو بعيد، ويراها بعيداً وهو عند عتبة بابه، لأن المسافات النفسية ليست دائماً مطابقةً للمسافات الحقيقية، ومن عاش غارقاً في يومه رأى الموت بعيداً، ومن استولى عليه شبابه رأى الشيخوخة بعيدة، ومن طال عليه إمهال الله رأى الحساب بعيداً، حتى تتحول «البُعدية» من وصفٍ للزمان إلى مخدرٍ للضمير.

إن معظم الجراءة على المعصية تستند في أعماقها إلى وهم التأجيل؛ فالإنسان لا يحتاج لكي يعصي إلى أن ينكر الله بالضرورة، وإنما يكفي أحياناً أن يظن أن الحساب ليس الآن، وأن

سُورَةُ الْمَعَارِجِ | حِينَ يَصْعَدُ الْقَلْبُ فَوْقَ ضَرْبِ الْأَرْضِ

التوبة يمكن أن تكون غداً، وأن العمر ما يزال أمامه، وهكذا يصبح غداً أحد أخطر مخابئ

النفس، تأوي إليه كلما طرقها صوت الحق، إلى أن يجيء اليوم الذي لا يوجد بعده غدا.

وقوله ﴿يَرَوْنَهُ﴾ يحمل تربيةً عميقة للمؤمن: لا تثق بكل ما تراه نفسك؛ فقد تصنع العادة

بصراً، وتصنع الشهوة بصراً، وتصنع الرغبة بصراً، وليس كل ما يبدو للإنسان حقيقةً يكون

حقيقةً، ولذلك جاء الوحي لينح البصر الإنساني ميزاناً خارج أهوائه، فلا تكون الرؤية هي

الحاكمة على الخبر الإلهي، بل الخبر الإلهي هو الذي يصحح الرؤية.

الآية السابعة

﴿وَزَّاهُ قَرِيْبًا﴾

بين آيتين قصيرتين ينقسم الوجود إلى رؤيتين: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾ و﴿وَزَّاهُ قَرِيْبًا﴾؛ وليس

بعد هذا الفصل من فصل، لأن المسألة ليست اختلاف تقديرٍ بين طرفين متساويين، بل بين

رؤية الإنسان المحجوب باللحظة وعلم الله المحيط بالزمان كله، فما يراه الإنسان في آخر الأفق

حاضرٌ في العلم الإلهي، وما يسميه مستقبلاً واقعٌ في التقدير، وما يحسب بينه وبينه أعماراً

طويلة لا يعدو أن يكون خطوةً داخل مسيرة تنتهي أسرع مما يظن.

سُورَةُ الْمَعَارِجِ | حِينَ يَصْعَدُ الْقَلْبُ فَوْقَ ضَيْقِ الْأَرْضِ

﴿وَنَزَاهُ قَرِيبًا﴾ جملةٌ ينبغي أن تغيّر علاقة المؤمن بكل مؤجل: الوعد قريب، والآخرة قريبة،

واللقاء قريب، والموت قريب، وليس المقصود أن يعيش الإنسان مذعوراً من الزمن، وإنما أن يعيش متحرراً من خدعة الزمن؛ فالذي يعرف أن النهاية قريبة لا يبيع الدائم بالعابر، ولا يهدم آخرته ليصلح لحظةً من دنياه، ولا يجعل خسارةً عاجلةً أكبر من ربح أبدي.

والقرب هنا لا يقاس بعدد السنوات، لأن كل آتٍ قريب، ولأن العمر مهما امتد ينكش في ذاكرة صاحبه حتى يبدو في آخره كأنه مرّ في لحظة؛ وسيأتي يومٌ ينظر فيه الإنسان إلى عشرات السنين التي عاشها، بكل لياليها وأحلامها وخصوماتها ومخاوفها، فيراها أصغر من الضجة التي أحدثتها فيه، ويكتشف أن الأشياء التي ملأت قلبه حتى لم تترك لله فيه مساحةً كانت تمر، وأن الشيء الوحيد الذي كان يتقدم نحوه بلا توقف هو اللقاء.

وهكذا يضعنا الفصل الأول أمام أول قاعدة في معراج الإيمان: ما تراه النفس بعيداً قد يكون عند الله قريباً، وما دام الميزان ميزانه سبحانه فلا تجعل بطء الطريق في إحساسك دليلاً على غياب النهاية؛ ولهذا جاء الأمر في الوسط كجوهرة السورة الأولى: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾، لأن أجمل ما يفعله المؤمن حين تختلف رؤيته المؤقتة مع وعد الله أن يمنح الوعد ثقته، ويمنح الطريق صبره، ويمنح الله قلبه.

سُورَةُ الْمَعَارِجِ | حِينَ يَصْعَدُ الْقَلْبُ فَوْقَ ضِيقِ الْأَرْضِ

وفي اللحظة التي يستقر فيها هذا المعنى، تبدأ السماء في الآيات التالية بالتغير، وتذوب الجبال، وتكشف العلاقات، ويقف الإنسان أمام يومٍ لم يعد يراه بعيداً؛ فالسورة لا تترك الفكرة معلقة في الذهن، بل تنقلنا فوراً من الجدل حول وقوع القيامة إلى مشهد وقوعها، كأنها تقول لمن استبعد: تعال الآن لترى ما كنت تراه بعيداً.

الفصل الثاني

حين تسقط الأشياء التي ظنَّ الإنسان أنها لا تسقط

الآيات: 8 - 18

بعد أن حسمت السورة حقيقة اليوم الذي يراه المكذبون بعيداً ويراها الله قريباً، لا تشرع في إثباته بالمجادلة، بل تفعل شيئاً أشد تأثيراً: تفتح أبوابه وتدخل الإنسان إلى مشاهده، فالسمااء التي كان يرفع إليها رأسه مطمئناً إلى ثباتها تتغير، والجبال التي كانت المثال الأخير للرسوخ تنفك، والقرباب التي ظنها حصنه الأخير تتهاوى أمام الخوف، ثم يبقى الإنسان وحده أمام حقيقة عمله، لا تدفع عنه سماء ولا جبل ولا ولد ولا زوجة ولا أخ ولا عشيرة، وكأن القيامة في هذه الآيات ليست فقط نهاية العالم الخارجي، وإنما انهيار جميع المساند التي بنى عليها الإنسان وهم استقلاله عن الله.

﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾

أول ما يتغير في المشهد هو الشيء الذي يبدو في الدنيا أبعد الأشياء عن التغير: السماء؛ ذلك السقف الممتد الذي عاش الإنسان عمره كله تحته، ورآه كل صباح في مكانه، حتى تسرب إلى حسه أن الثبات صفةٌ ذاتيةٌ للأشياء، وأن ما طال بقاءه لا يمكن أن يزول، فإذا بالسورة تبدأ يوم القيامة من أعلى نقطة في علمنا المرئي فتقول: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾؛ فما كان رمز الصفاء والامتداد والثبات يصبح كالمهل، في صورةٍ تفقد معها السماء هيئتها المألوفة، ليعرف الإنسان أن الثبات الذي رآه في الكون لم يكن استقلالاً، بل كان إمساكاً إلهياً، وأن الشيء لا يستمر لأنه قادرٌ على الاستمرار، وإنما لأنه مأذونٌ له أن يستمر.

والقرآن حين يهدم في مشهد القيامة السماء قبل أن يهدم كثيراً من تفاصيل الأرض، إنما يضرب أعمق جذور الوهم في النفس: وهم الاعتماد على المألوف؛ فالإنسان يظن أن ما تكرر طويلاً سيبقى طويلاً، وأن الصحة التي صحبته أعواماً ستظل، وأن البيت الذي آواه سيظل، وأن علاقاته وأمواله وأسباب قوته ستبقى في أماكنها لأنها كانت فيها بالأمر،

سُورَةُ الْمَعَارِجِ | حِينَ يَصْعَدُ الْقَلْبُ فَوْقَ ضَيْقِ الْأَرْضِ

بينما تعلمه القيامة أن التكرار ليس عهداً بالبقاء، وأن كل ما في العالم قائم بإقامة الله له،
فإذا شاء أن يغيره تغير في لحظة ما كان يبدو أن الدهور لا تغيره.

ولهذا فالإيمان بالقيامة لا يجعل الإنسان يحتقر الدنيا، ولكنه يمنعه من أن يخلط بين نعمتها
ودوامها، وبين جمالها وأبديتها، وبين ثبات قوانينها في تجربته القصيرة وبين كونها مستقلةً عن
إرادة خالقها؛ فالسماء نفسها، التي تبدو أثبت من جميع أحوالنا، سيأتي عليها يوم لا تبقى فيه
كما عرفناها، فكيف يطمئن القلب إلى ما دونها اطمئنان الخلود؟

الآية التاسعة

﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾

ثم تنزل العين من السماء إلى الجبال؛ ومن العلو إلى الرسوخ، ومن الشيء الذي يستحيل في
حس الإنسان أن يسقط إلى الشيء الذي يستحيل عنده أن يتحرك، فإذا الجبال التي كانت
تضرب بها الأمثال في القوة تصبح كالعهن، كالصوف في خفته وتفككه، وتحول الكُل التي
كانت تبدو وكأنها جزء من معنى الثبات نفسه إلى شيء لا يمسك نفسه.

في الدنيا يقول الإنسان عن بعض الأشياء: هذا راسخٌ كالجبال، ثم تأتي القيامة لتقول له:
حتى الجبال ليست راسخةً بذاتها؛ فالرسوخ وصفٌ عارض في عالم مشروط بإرادة الله، وإذا

سُورَةُ الْمَعَارِجِ | حِينَ يَصْعَدُ الْقَلْبُ فَوْقَ ضَيْقِ الْأَرْضِ

كان الجبل نفسه لا يملك أن يحتفظ بهيئته حين يأتي الأمر، فإِ أضعف تلك الجبال الصغيرة التي بنينا في حياتنا: مالٌ نظنه حصناً، منصبٌ نظنه ضماناً، شهرةٌ نظنها خلوداً، قوةٌ نظنها عصمة، جماعةٌ نظنها ظهراً لا ينكسر؛ كلها جبال نفسية، وما أكثر ما يربط الإنسان قلبه بها حتى تأتي لحظة واحدة فتجعله يرى أنها كانت عهداً قبل أن يدرك أنها عهد.

والقرآن لا يريد أن يصنع في النفس خوفاً مرضياً من الأشياء، بل حريةً منها؛ أن تستعمل الجبل ولا تعبد، وتنتفع بالسبب ولا تسكن إليه، وتحب النعمة دون أن تجعلها أصل أمك، لأن الذي يتكى قلبه على المخلوق سيعيش مرتجفاً من زواله، أما الذي يتكى على الله فإنه يستطيع أن يرى الجبال تحول إلى عهد ويبقى في قلبه المعنى الذي لا يتحول.

الآية العاشرة

﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾

بعد انهيار السماء والجبال، ينتقل الانهيار إلى مكانٍ أعمق: العلاقات؛ فالإنسان قد يقول في نفسه: إن سقط العالم بقي الأحباب، وإن ضاقت الحياة بقي الصديق، وإن ذهبت الأسباب بقي القريب، لكن يوم القيامة يبلغ الخوف من الشدة مبلغاً يتصرف فيه كل امرئ إلى نفسه: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾.

سُورَةُ الْمَعَارِجِ | حِينَ يَصْعَدُ الْقَلْبُ فَوْقَ ضَرْبِ الْأَرْضِ

والحميم هو الذي بلغت مودته وقربته مبلغاً بعيداً، ومع ذلك لا تسعفه شدة الموقف بأن يسأل عن حميمه؛ لا لأن المحبة كانت كاذبة بالضرورة، ولكن لأن اليوم أكبر من طاقة الروابط البشرية، وهنا يعلم الإنسان الفرق بين المحبة وبين النجاة؛ فقد يحبك إنسانٌ ولا يملك أن ينقذك، وقد يمتلئ قلبه عليك شفقةً ولا يملك لك دفْعاً، وقد يكون أقرب الناس إليك ثم تقفان يوماً لا يحمل أحدكما للآخر إلا عجزه.

وهذا من أنضح المعاني التي تربي عليها الآخرة: ألا تطلب من البشر ما لا يملكونه؛ أحبهم، وأحسن إليهم، وكن وفيّاً لهم، ولكن لا تجعل فيهم مقاماً لا يكون إلا لله؛ فالناس نعمة، وليسوا نجاةً مطلقة، وهم سندٌ في حدود الدنيا، أما حين ينكشف الحساب فإن كل نفس تأتي بما كسبت، وتدخل معها إلى الموقف حقيقتها التي لا يستطيع أحد أن يحملها عنها.

الآية الحادية عشرة

﴿يَبْصُرُونَهُمْ بِجُودِ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْقَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِنَا بَنِيهِ﴾

قد يتوهم متوهم أن الحميم لا يسأل حميمه لأنه لا يراه، فتقطع الآية هذا الوهم بكلمة واحدة: ﴿يَبْصُرُونَهُمْ﴾؛ يرونهم، يعرفونهم، تقع عليهم أبصارهم، ولكنهم لا يملكون أن يتحركوا إليهم

سُورَةُ الْمَعَارِجِ | حِينَ يَصْعَدُ الْقَلْبُ فَوْقَ ضَيْقِ الْأَرْضِ

حركة النجدة المألوفة، بل يبلغ الخوف بالمجرم أن ينقلب ترتيب الأشياء في قلبه انقلاباً مروّعاً، فيتمنى لو يفتدي نفسه ببنيه.

وهنا يدخل القرآن إلى المنطقة التي يظن الإنسان أنها لا يمكن أن تتغير: عاطفة الأبوة؛ فالابن في الدنيا امتداد القلب، والإنسان مستعد غالباً أن يحمل الألم عنه، وربما تمنى لو أصابه الضر ولم يصب ولده، فإذا أطل يوم الحساب على نفسٍ مجرمة قلب الفرع تلك المعادلة رأساً على عقب، فأصبح الذي كان يفديه بنفسه يتمنى أن يفدي نفسه به.

وليس المقصود أن الآخرة تلغي معاني المحبة، بل أن الموقف يكشف شدة الهول إلى حدٍّ تنفك عنده موازين النفس التي عرفناها؛ ومن هنا نفهم أن الإنسان لا يعرف حجم النار ما دام يقيسها بأحاسيس الدنيا، فالיום الذي يجعل الأب يتمنى بذل أبنائه للخلاص ليس يوماً يشبه يوماً من أيامنا.

ثم إن الآية تحمل تحذيراً خفياً: لا تجعل محبتك لأبنائك سبباً يبعدك عن الله، ثم تأتني في يوم لا ينفعك فيه حبه ولا تنفعهم معصيتك لأجلهم؛ فمن أعجب خسران الإنسان أن يعصي الله من أجل من لا يستطيع أن ينجيهِ من الله.

﴿وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ﴾

ويتسع الافتداء؛ فلا يقف عند الأبناء، بل يصل إلى الصاحبة والأخ، أي إلى دائرة البيت والدم، إلى الإنسان الذي سكن إليه، والإنسان الذي شاركه أصل القرابة، وكأن المجرم يفتش في خزانة علاقاته كلها عن شيء يدفعه ثمناً للخلاص.

في الدنيا نتعلم أن أقرب الناس إلينا هم دوائر الأمان، وهذا صحيح في موضعه، لكن السورة تنقلنا إلى موضع تنتهي فيه صلاحية كل حماية بشرية؛ ولذلك فالعاقل لا يقطع علائقه بالناس، وإنما يصحح مقامها في القلب، فلا تصبح الصاحبة بديلاً عن الله، ولا يصبح الأخ حصناً يغرّه، ولا تتحول العائلة إلى عذرٍ يؤجل به توبته، فكل علاقةٍ لا تقود أطرافها إلى الله قد تنقلب يوماً من مصدر سكينَةٍ إلى مصدر حسرة.

واللافت أن الآية لا تصف هؤلاء بالعداء، بل تذكّرهم بأقرب أوصافهم؛ مما يزيد الصورة إيلاًماً: ليس الافتداء بالخصوم، بل بمن كان القلب يضمهم إلى أخص مواضعه، وهنا يظهر معنى رهيب من معاني الحساب: حين يخاف الإنسان على نفسه خوفاً مطلقاً، يبدأ كل ما سواه في الانكماش أمامه؛ ولذلك لم يكن إصلاح النفس أنانية، بل هو أعظم ما تقدمه

سُورَةُ الْمَعَارِجِ | حِينَ يَصْعَدُ الْقَلْبُ فَوْقَ ضَيْقِ الْأَرْضِ
لأحبائك، لأن النجاة الحقيقية لا تصنعها العاطفة المجردة، وإنما تصنعها طاعةٌ يمكن أن
تجمعكم حين تنتهي كل روابط الأرض.

الآية الثالثة عشرة

﴿وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ﴾

ثم تسع الدائرة من البيت الصغير إلى الحوض الاجتماعي الأكبر: ﴿وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ﴾،
الجماعة التي يجد فيها الإنسان مأواه ونسبه وظهره وهويته، والتي يشعر في الدنيا أنه إن ضاق
به العالم اتسعت له، وإن خذله الناس حملته، وإن هُوجم وقفت وراءه.

لكن القيامة تهدم حتى هذا الملاذ؛ لأن الفصيلة تستطيع أن تؤوي الجسد في الدنيا، لكنها
لا تستطيع أن تؤوي الروح من الحساب، ويمكنها أن تدفع عنك خصماً بشرياً، لكنها لا
تدفع عنك عملك، وقد تمنحك اسماً ونفوذاً ومكانة، لكنها لا تمنحك عند الله وزناً لم تصنعه
أنت بالإيمان والعمل.

وهذه الآية شديدة الخطورة على كل من يذيب مسؤوليته الفردية في جماعته؛ من يظن أنه
صالح لأن قومه صالحون، أو محق لأن حزبه محق، أو ناجٍ لأن نسبه كريم، أو محترم عند الله

سُورَةُ الْمَعَارِجِ | حِينَ يَصْعَدُ الْقَلْبُ فَوْقَ ضَيْقِ الْأَرْضِ

لأن الناس يحترمون بيته؛ فالآخرة تفرد الإنسان من جميع العناوين الخارجية، ثم تسأله عن

اسمه الداخلي: ماذا كنت أنت؟

كم من إنسانٍ عاش مستتراً باسم جماعة، ولو نُزعت عنه الجماعة لم يبقَ من فضله إلا القليل؛

والقيامة هي اليوم الذي تُنزع فيه جميع الأغلفة، فلا يبقى إلا القلب والعمل.

الآية الرابعة عشرة

﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ نَبِّئِهِ﴾

بلغ اليأس غايته: لم يعد المجرم يريد أن يفتدي نفسه بأهلٍ أو قبيلة فقط، بل بمن في الأرض

جميعاً؛ البشرية كلها مقابل نجاته وحده، وهذه هي الصورة القصوى للذات حين تُحاصر

بالعذاب: تنكمش الدنيا كلها أمام طلب النجاة الشخصية.

إن الإنسان في رخائه يستطيع أن يطلق الشعارات الواسعة، ويتحدث عن التضحية والحب

والوفاء، لكن القرآن يأخذ النفس إلى أشد نقطة اختبار ويكشف كم هي متعلقة ببقائها؛

وحين لا تُهذَّب هذه الأنانية بالإيمان، فإنها في أقصى الشدة مستعدة أن تجعل العالم كله

وقوداً لخلاصها.

سُورَةُ الْمَعَارِجِ | حِينَ يَصْعَدُ الْقَلْبُ فَوْقَ ضَيْقِ الْأَرْضِ

والتعبير ﴿ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾ يحمل تمنياً مستحيلاً؛ كأنه يقول: لو أملك الأرض كلها لألقيتها ثم أعبّر

وحدني، ولكن النجاة ليست سلعة تُشترى بعد ظهور الحقيقة، ولا صفقة تعقد عند باب

النار، وإنما لها وقتٌ سابق اسمه الدنيا، وثمنها ليس أرواح الآخرين بل إصلاح روحك أنت.

وهنا تنقلب الآية إلى سؤال قريب جداً: إذا كان الإنسان مستعداً يوم القيامة أن يبذل

الأرض كلها لينجو، فلماذا يبخل اليوم بركعتين، أو توبة، أو مالٍ يخرج به لله، أو شهوةٍ

يتركها، أو مظلمةٍ يردّها، أو كبيرٍ يكسره؟ ما أرخص الطاعة حين تُقارن بالثمن الذي سيتمنى

المفرط يوماً لو استطاع دفعه!

الآية الخامسة عشرة

﴿كَأَنَّهَا لَفْطٌ﴾

تأتي ﴿كَأَنَّهَا لَفْطٌ﴾ كالسكين تقطع جبل الأمانة كلها: لا الأبناء، ولا الصاحبة، ولا الأخ، ولا

الفصيلة، ولا الأرض، ولا من فيها؛ انتهى باب المساومة، وبدأ باب الحقيقة: ﴿إِنَّهَا لَفْطٌ﴾.

وما أفسى أن تأتي الحقيقة بعد قائمة طويلة من الأمنيات؛ فالجرم يتخيل أبواباً كثيرة للنجاة،

والقرآن يغلقها جميعاً بكلمة، ثم يتركه أمام النار بلا وسائل لغوية تخفف المشهد.

سُورَةُ الْمَعَارِجِ | حِينَ يَصْعَدُ الْقَلْبُ فَوْقَ ضَيْقِ الْأَرْضِ

وفي هذا تعليم عميق: بعض «كلا» التي يقولها القرآن للإنسان هي رحمةٌ به قبل أن تصبح حكماً عليه؛ حين يقول له في الدنيا: كلا، ليس المال خلوداً، كلا، ليست القوة نجاة، كلا، ليست الأمانى كافية، كلا، لا يمكنك أن تعصي ثم تطمئن إلى المغفرة بلا توبة؛ فإن استمع إلى «كلا» الوحي في الدنيا نجا من «كلا» التي تقطع الأمانى في الآخرة.

الآية السادسة عشرة

﴿نَزَاعَةٌ لِلشَّوَى﴾

ليس العذاب هنا مجرد إحاطة، بل نزاع؛ واللفظة وحدها تحمل خشونة المشهد، فهي نار لا تلامس الإنسان مساً عابراً، وإنما تبلغ منه مبلغاً يهتك ما كان يتجمل به جسده، ويسقط عنه صورة القوة التي عاش مفتوناً بها.

وكم يناسب هذا الجزاء عالماً كان الإنسان فيه مشغولاً بالقشرة أكثر من الحقيقة؛ تجلّه صورته، ويغريه مظهره، ويتنافس على ما يراه الناس منه، ثم يأتي يوم تنكشف فيه هشاشة الجسد الذي اتخذ له في الدنيا كل أسباب العناية بينما أهمل الروح التي ستبقى مسؤولةً بعد ذهاب الهيئة.

سُورَةُ الْمَعَارِجِ | حِينَ يَصْعَدُ الْقَلْبُ فَوْقَ ضَيْقِ الْأَرْضِ

إن القرآن لا يحتقر الجسد، ولكنه يعيد ترتيبه في الوعي؛ ليس الجسد هو أنت كله، ولا جماله ضمانك، ولا قوته نجاتك، وليس أحق ما فيك بالعناية؛ وراء قلب إن فسد لم تستره أجمل هيئة، وإن صلح صار الجسد أداة عبادة لا صمًا خفيًا.

الآية السابعة عشرة

﴿تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى﴾

هنا يصبح للعذاب اتجاه أخلاقي واضح: النار تدعو من أدبر وتولى؛ والعبارة مدهشة، لأن الإنسان في الدنيا هو الذي كان يدعى إلى الله فيعرض، ويدعى إلى الصلاة فيتناقل، ويدعى إلى التوبة فيؤجل، ويدعى إلى الحق فيدبر، فإذا انتهى زمن الدعوة الرحيمة جاءت دعوة من نوع آخر.

لقد كانت الرسالة تقول له: أقبل، فاختر الإدبار؛ وكانت الآيات تقول له: لا تتول، فاختر التولي؛ وفي الآخرة يجد نفسه أمام نتيجة اتجاهه كله، وكأن النار ليست حدثًا منفصلًا عن حياته، بل خاتمة الطريق الذي مشى فيه مبتعدًا.

وفي ﴿أَدْبَرَ وَتَوَلَّى﴾ معنى يزيد على مجرد الخطأ؛ فكل إنسان يخطئ، لكن الخطر أن يتحول الخطأ إلى اتجاه، وأن يصبح الظاهر هو الوجه الدائم الذي يقدمه الإنسان للحق، يعرف ثم

سُورَةُ الْمَعَارِجِ | حِينَ يَصْعَدُ الْقَلْبُ فَوْقَ ضِيقِ الْأَرْضِ
يعرض، يسمع ثم ينسحب، يذُكَّرُ ثم يتكبر؛ فالنَّجاة لا نتطلب عصمةً من الزلزال، لكنها
نتطلب قلباً إذا نُوديَ أقبل.

الآية الثامنة عشرة

﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾

وتنتهي هذه السلسلة بآية قصيرة تكشف صنماً عظيماً من أصنام النفس: الجمع؛ جمع المال ثم
إيعاؤه، أي حبسه وكنزه والإمساك به، وكأن الإنسان وجد في المال بديلاً عن الأمان
الذي كان ينبغي أن يجده في الله.

المشكلة ليست في أن يملك الإنسان مالاً، وإنما في أن يمتلكه المال؛ أن يتحول الجمع من وسيلة
إلى غاية، ومن حاجة إلى هوية، وأن يصبح شعوره بالقيمة مرتبطاً بما في يده لا بما في قلبه،
فيجمع لأنه يخاف، ويمنع لأنه يخاف، ويكدّس لأنه لا يثق أن غداً في يد الله.

ولذلك لم يكن عبثاً أن تأتي هذه الآية بعد ﴿أَدْبَرَ وَتَوَلَّى﴾؛ فالإدبار عن الله يترك فراغاً في
القلب، والإنسان لا يحتمل الفراغ، فيملؤه غالباً بشيء من الدنيا، والمال من أسرع الأشياء
قدرةً على إعطاء وهم الأمان؛ فيظن الإنسان أنه كلما زاد الرصيد قل الخوف، فإذا بالخوف
قد يزداد مع الرصيد لأن القلب صار يملك شيئاً يخشى فقدته.

سُورَةُ الْمَعَارِجِ | حِينَ يَصْعَدُ الْقَلْبُ فَوْقَ ضِيقِ الْأَرْضِ

والأعجب أن هذا الموضع نفسه يمهد مباشرة للكشف الأكبر في السورة عن طبيعة الإنسان:

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾؛ فكأن الجمع والإيعاء ليسا سلوكًا اقتصاديًا فحسب، بل عرض

لمرض أعمق: الخوف الداخلي من الفقد.

وهنا ينتهي الفصل الثاني وقد أزالَت السورة طبقةً بعد طبقة من أوهام الأمان: السماء

تتغير، الجبال تنفكك، الأقارب يعجزون، الأبناء لا يتقذون، القبيلة لا تؤوي، أهل الأرض

لا يشترتون الخلاص، والمال الذي جُمع لا يفتح باباً؛ وبعد أن تسقط جميع الحصون

الخارجية، تلتفت السورة فجأةً إلى الحصن الداخلي نفسه، إلى تركيب الإنسان الذي كان

وراء كثير من هذه الأوهام، فنقول الجملة التي ستفسر قدراً هائلاً من اضطراب النفس

البشرية:

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾.

ومن هنا يبدأ الفصل الثالث: حين يكشف القرآن الإنسان لنفسه.

الفصل الثالث

حين يكشف القرآنُ الإنسانَ لنفسه

من الهلّع الفطري إلى الكرامة الإيمانية

الآيات: 19 - 35

بعد أن عرضت السورة نار الآخرة، لا تظل تحدّثنا عن النار البعيدة، وإنما تهبط فجأةً إلى النار الصغيرة التي يحمل الإنسان بذرتها في داخله: القلق، والجزع، والخوف من الفقد، والاستئثار بالخير؛ فكأن العذاب الخارجي الذي رأيناه في الآيات السابقة يقابله اضطرابٌ داخلي إذا تُرك بلا هداية حوّل حياة الإنسان نفسها إلى نوعٍ من الاحتراق المستمر، ولهذا تأتي الآية: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ لا لتدين أصل الخلقة، وإنما لتكشف مادة الابتلاء فيها؛ فالإنسان مخلوقٌ حساس تجاه ما يمسه من شر، شديد التعلق بما يصيبه من خير، ثم تأتي العبادة لتعيد تربية هذه الحساسية حتى لا يبقى أسيراً لها، وبأني الإيمان ليصنع من المخلوق القَلِقَ إنساناً يستطيع أن يسكن إلى الله ولو اضطرب العالم حوله.

سُورَةُ الْمَعَارِجِ | حِينَ يَصْعَدُ الْقَلْبُ فَوْقَ ضِيقِ الْأَرْضِ

وهذه من أعظم صفحات القرآن في فهم النفس البشرية؛ لأنها لا تعرض الفضائل متفرقة، بل تكشف أولاً الجذر الداخلي للمرض، ثم تبني أمامه منظومة علاج كاملة: صلاةً تضبط القلب، ومالٌ يتحرر من قبضة الأنانية، وآخرةٌ تعيد ترتيب المقاييس، وخوفٌ من الله يمنع الغرور، وعفةٌ تحرس الشهوة، وأمانةٌ تحمي العلاقات، وشهادةٌ تحفظ الحق، ثم تعود الصلاة في نهاية الصفات كما بدأت بها، وكأن الحياة المؤمنة قوسٌ يبدأ من محراب الصلاة وينتهي إليه.

الآية التاسعة عشرة

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾

قلّبا يواجه الإنسان نفسه بوصفٍ بهذه الصراحة: هلوعاً؛ كلمةٌ تختصر اضطراباً كاملاً في بنية النفس، فالهلع ليس مجرد الخوف، وإنما شدة الحرص، وسرعة الجزع، وضيق الاحتمال، واضطراب الداخل حين تتغير الظروف عما يرغب الإنسان، وكأن النفس في أصل ضعفها تريد أن يكون الكون كله موافقاً لما تحب، فإذا لم يكن كذلك اضطربت.

والقرآن حين يقول ﴿خُلِقَ هَلُوعًا﴾ لا يمنح الإنسان عذراً ليستسلم لهلعه، وإنما يعرفه بمادة امتحانه؛ فالجبان لا يصبح شجاعاً بإنكار خوفه، ولا البخيل كريماً بإنكار شحه، وإنما يبدأ

سُورَةُ الْمَعَارِجِ | حِينَ يَصْعَدُ الْقَلْبُ فَوْقَ ضَيْقِ الْأَرْضِ

الإصلاح حين يعرف الإنسان موضع الضعف الذي يحتاج إلى مجاهدة، ولهذا فإن الوحي لا يجاملنا في وصف أنفسنا، لأنه يريد أن يحررنا منها.

الإنسان في أعماقه يريد ضمانات دائمة؛ يريد صحة لا تمرض، ومالاً لا ينقص، وأحباباً لا يغيبون، وأسباباً لا تتعطل، ومستقبلاً يعرف تفاصيله قبل أن يصل إليه، وحين يعجز الواقع عن منحه هذه الضمانات يبدأ القلق؛ لكن الإيمان لا يعده بأن العالم سيتحول إلى مكان بلا مفاجآت، وإنما يعطيه ضماناً أعظم: أن الله لا يغيب حين تغيب الضمانات.

وهنا يبدأ الفرق بين علاج الملح بالسيطرة وعلاجه بالعبودية؛ الإنسان يحاول أن يطمئن بامتلاك كل شيء، والمؤمن يتعلم أن يطمئن وهو لا يمتلك كل شيء، لأن الذي يملك كل شيء هو الله.

الآية العشرون

﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾

قال: ﴿مَسَّهُ﴾، ولم يقل أحاط به الشر أو أهلكه؛ فطبيعة الملح قد تجعل مجرد المساس كافياً ليوقظ الجزع، لأن المشكلة أحياناً لا تكون في حجم المصيبة، بل في مقدار هشاشة النفس

سُورَةُ الْمَعَارِجِ | حِينَ يَصْعَدُ الْقَلْبُ فَوْقَ ضَيْقِ الْأَرْضِ

أمامها، وقد تحمل نفسٌ مؤمنةً جبلاً من البلاء بسكينة، بينما تحمل نفسٌ أخرى حجراً صغيراً

فتراه جبلاً لأن الداخل لم يتعلم بعد كيف يضع الأشياء في أحجامها الحقيقية.

والجزع لا يعني الحزن؛ فالحزن إنساني، وقد حزن الأنبياء، وبكت العيون، وتألّت القلوب،

ولكن الجزع شيء آخر: أن يكبر الألم حتى يحجب عنك الله، وأن تستولي اللحظة عليك حتى

تظن أنها الحقيقة كلها، وأن تنظر إلى المصيبة فلا ترى وراءها حكمةً ولا أجراً ولا فرجاً ولا

رباً يديره.

كم من شرٍّ مس الإنسان فظنه نهاية حياته، ثم مضى الشر وبقى هو، وكم من بابٍ أُغلق

فجلس أمامه كأن العالم انتهى، ثم اكتشف بعد أعوام أن الله كان يغلق طريقاً لينجيه منه

أو يفتح له طريقاً لم يكن يراه؛ ولهذا فالإيمان لا يقول للإنسان إن الشر لن يمسه، بل يعلمه

كيف يمسه الشر ولا يمتلكه الشر.

والفرق بعيد بين أن يدخل الألم حياتك وأن يدخل عرش قلبك؛ الأول قدر، والثاني هو

الذي تقاومه العبودية.

سُورَةُ الْمَعَارِجِ | حِينَ يَصْعَدُ الْقَلْبُ فَوْقَ ضِيقِ الْأَرْضِ

الآية الحادية والعشرون

﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾

كان يجزع حين يفقد، فإذا أُعطي خاف أن يفقد ما أُعطي، فصار يمنع؛ وهكذا يكشف القرآن أن الجزع والمنع ليسا مرضين منفصلين، بل وجهان لخوفٍ واحد: الإنسان يجزع من النقص، ثم حين تأتية الزيادة يقبض عليها بيد مرتعشة كأنه يخشى أن يعود إلى النقص مرة أخرى.

وهنا تظهر مفارقة النفس: الشر يكشف ضعفها، والخير يكشف شحها؛ فهي ليست في أمان من الاختبار في حال الضيق ولا في حال السعة، وقد ينجح إنسان في امتحان الفقر ثم يسقط في امتحان الغنى، ويتماسك حين لا يملك شيئاً ثم يتغير حين صار يملك الكثير.

والخير في الآية مطلق، ليشمل كل ما يراه الإنسان خيراً: المال، والصحة، والقدرة، والجاه، والعلم، والفرصة، والمحبة؛ وكل نعمة إذا لم تمر عبر القلب المؤمن قد تتحول من عطاءٍ إلى سياجٍ يبينه الإنسان حول ذاته.

سُورَةُ الْمَعَارِجِ | حِينَ يَصْعَدُ الْقَلْبُ فَوْقَ ضَيْقِ الْأَرْضِ

ولهذا لا يُعرف معنى النعمة بما يدخل يدك فقط، وإنما بما تخرجه منك؛ فإن جعلتك أكثر شُكراً ورحمةً وبذلاً فقد وصلت إلى موضعها الصحيح، وإن جعلتك أشد انغلاقاً وخوفاً ومنعاً فقد أصبحت أنت حارساً للنعمة بدل أن تكون عبداً للنعمة.

الآية الثانية والعشرون

﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾

وهنا يأتي الاستثناء كإفادةٍ تفتح فجأةً في جدار النفس: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾.

كان الكلام عن طبيعة الإنسان وكأنه حكم شامل، ثم جاءت الصلاة لتقول إن الطبيعة ليست قدراً نهائياً، وإن الإنسان يستطيع أن يرتفع فوق كثير من اندفاعاته الفطرية إذا اتصل بالله اتصالاً حقيقياً.

ولم تقل الآية: إلا العلماء، ولا إلا الأقوياء، ولا إلا أصحاب التجارب، بل المصلين؛ لأن أول علاجٍ للهلع ليس زيادة المعلومات، وإنما تصحيح مركز الاعتماد، فالقلق ينشأ حين يشعر الإنسان أن العالم كله فوق كتفيه، والصلاة تعيده خمس مراتٍ في اليوم إلى الحقيقة: أنت عبد، ولست رباً للكون؛ عليك السعي، وليس عليك تدبير النتائج؛ لك بابٌ مفتوح إلى من بيده ما تخاف فقداه وما ترجو حصوله.

سُورَةُ الْمَعَارِجِ | حِينَ يَصْعَدُ الْقَلْبُ فَوْقَ ضَيْقِ الْأَرْضِ

إن الصلاة في هذا الموضع ليست أداءً طقوسياً معزولاً، بل إعادة بناء للنفس؛ كل سجدةٍ

تقول للكبر: انزل، وكل تكبيرة تقول للخوف: الله أكبر، وكل دعاء يقول للوحدة: لست

وحدك، وكل تسليم يقول للقلب: أعد الأمور إلى صاحبها.

ومن هنا نفهم لماذا بدأت النجاة من الهلع بالصلاة؛ لأن الإنسان لا يتحرر من عبودية

الظروف حتى يدخل تماماً في عبودية الله.

الآية الثالثة والعشرون

﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾

لم يقل: الذين يصلون أحياناً، بل ﴿دَائِمُونَ﴾؛ لأن النفس الهلوع لا يعالجها اتصالٌ موسمي

بالله، فهي تعود كل يوم إلى خوفها وشهوتها وقلقها، ولذلك تحتاج كل يوم إلى استعادة

مركرها.

والدوام هنا يكشف أن العبادة لا تؤتي أثرها العميق من مجرد وجودها، بل من رسوخها؛

فالماء الذي يمر مرةً على الصخر لا يترك أثراً كالذي يستمر عليه، وكذلك الصلاة حين تتحول

من حدثٍ متقطع إلى إيقاعٍ ثابت يعيد تشكيل الإنسان ببطء لا يلحظه في كل يوم، لكنه

يكشف بعد أعوام أن قلبه صار غير القلب الذي بدأ.

سُورَةُ الْمَعَارِجِ | حِينَ يَصْعَدُ الْقَلْبُ فَوْقَ ضَيْقِ الْأَرْضِ

إن أجمل ما في الدوام أنه لا يشترط المزاج؛ المؤمن لا يصلي لأنه دائم النشاط، بل لأنه عبد في نشاطه وفتوره، ولا يقف بين يدي الله فقط حين يشعر بخشوع استثنائي، بل يقف ليطلب الخشوع أيضاً، وبذلك تتحول الصلاة من نتيجة للحالة الروحية إلى صانعة لها. الإنسان الحديث يريد أشياء سريعة الأثر، أما بناء القلب فغالباً ما يتم بطريقة أخرى: قليل ثابتٌ يتراكم حتى يصبح طبيعةً جديدة.

الآية الرابعة والعشرون

﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾

بعد الصلاة مباشرة يأتي المال؛ وكأن القرآن يختبر صدق الصعود الروحي عند أول شيء تحبه النفس وتخاف نقصانه، فالذي وقف في الصلاة وقال لله: أنا عبدك، يأتي المال ليسأله: هل بقيت عبد الله هنا أيضاً؟

﴿حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾؛ لم يسمه القرآن تفضلاً محضاً على المحتاج، بل حقاً، وهذه الكلمة تقلب زاوية النظر كلها؛ فالفقير ليس متطفلاً على مالك، والمعطي ليس إلهاً صغيراً يمنح من شاء، وإنما في المال وظيفة اجتماعية وعبودية أخلاقية، والنعمة التي وضعها الله في يدك لم يمنحك معها حق الانغلاق الكامل على نفسك.

سُورَةُ الْمَعَارِجِ | حِينَ يَصْعَدُ الْقَلْبُ فَوْقَ ضَيْقِ الْأَرْضِ

والهَلَعُ يقول: اجمع، فقد تحتاج غداً؛ والإيمان يقول: أعط، فإن رب غدٍ هو الذي أعطاك اليوم.

وهنا يبدأ علاج ﴿مُنَوَّعًا﴾ الذي مر قبل قليل، فالسورة لا تكتفي بتشخيص المرض، بل تضع ضده تدريباً عملياً: لا تعالج شكَّ بالتفكير في الكرم فقط، بل أخرج شيئاً من يدك بالفعل، لأن النفس نتعلم البذل بالبذل كما نتعلم الإمساك بالإمساك.

الآية الخامسة والعشرون

﴿لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾

ليس المحتاج نوعاً واحداً؛ ففهم من تدفعه الحاجة إلى السؤال، ومنهم محروم لا يسأل أو لا يظهر احتياجه، ولهذا يربي القرآن المؤمن على بصيرةٍ اجتماعية لا تنتظر دائماً أن تُرفع إليها اليد.

السائل يصل إليك بصوته، أما المحروم فقد تحتاج أنت أن تصل إليه ببصيرتك؛ وهذا مستوى أعلى من الرحمة، لأن العطاء هنا لا يكون استجابةً لمشهد ظاهر فقط، وإنما بحثاً عن الإنسان الذي سترت كرامته حاجته.

سُورَةُ الْمَعَارِجِ | حِينَ يَصْعَدُ الْقَلْبُ فَوْقَ ضَيْقِ الْأَرْضِ

وفي الآية تربيةً رقيقةً على ألا نجعل صوت المحتاج هو الشرط الوحيد للرحمة؛ فكم من إنسانٍ لا يقدر على الإفصاح، وكم من بيتٍ يحرس أهله كرامتهم بصمت، وكم من حرمانٍ يعيش خلف ثيابٍ نظيفة ووجوهٍ ساكنة لا يعرف الناس ما وراءها.

المال في التصور القرآني لا يجعل الغني أعلى من الفقير، بل يجعل كليهما داخل امتحان: هذا امتحانه في العطاء، وذاك امتحانه في الصبر، والله ينظر إلى القلبين معاً.

الآية السادسة والعشرون

﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَ الدِّينِ﴾

تعود الآخرة الآن، لكن لاحظ أنها لم تعد مشهداً خارجياً فقط؛ لقد تحولت إلى صفة في الإنسان: ﴿يُصَدِّقُونَ بَيِّمَ الدِّينِ﴾.

التصديق الحقيقي بالآخرة ليس أن تعرف أنها ستقع فحسب، وإنما أن تدخل في حساباتك اليومية؛ أن تصبح شريكاً حاضراً في قرارك وأنت تنفق، وتغضب، وتشتي، وتشهد، وتعامل مع الأمانة، وتختار بين الحق والمصلحة.

سُورَةُ الْمَعَارِجِ | حِينَ يَصْعَدُ الْقَلْبُ فَوْقَ ضَيْقِ الْأَرْضِ

ويوم الدين سمي كذلك لأن الجزاء فيه يظهر، والإنسان الذي يصدق بالجزاء لا يستطيع أن ينظر إلى الحياة كما ينظر إليها من يظن أن الصفحة ستغلق عند القبر؛ فكل ظلم له بقية، وكل إحسان له بقية، وكل دمة لم يرها الناس لها بقية، وكل حق ضاع في المحاكم الأرضية له محكمة لا تضيع عندها الملفات.

ولهذا كانت الآخرة من أعظم مصادر الاتزان الأخلاقي؛ لأنها تمنع الإنسان من أن يجعل النجاح العاجل دليلاً على صحة الطريق، فقد يربح الباطل جولةً ولا يكون رابحاً، وقد يخسر الحق شيئاً في الدنيا ولا يكون خاسراً، ومن صدق بיום الدين تحرر من استبداد النتيجة العاجلة.

الآية السابعة والعشرون

﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾

بعد التصديق يأتي الإشفاق؛ فليست الآخرة معلومةً باردة في العقل، بل حقيقة تنزل إلى الوجدان فتورث خوفاً يقطعاً، وليس هذا الخوف يأساً، بل خوف المحب الذي يعرف جلال من يعصي، ويعرف ضعف نفسه، فلا يغتر بما عمل.

سُورَةُ الْمَعَارِجِ | حِينَ يَصْعَدُ الْقَلْبُ فَوْقَ ضَيْقِ الْأَرْضِ

والتعبير ﴿عَذَابٍ رَّبِّهِمْ﴾ عجيب؛ فقد جمع بين العذاب والربوبية، ليظل القلب حتى في مقام الخوف متعلقاً بربه، فالذي تخشاه هو ربك، والذي ترجوه هو ربك، والذي تعبد به هو ربك، وليس المؤمن موزعاً بين إلهٍ للرحمة وإلهٍ للعقوبة، بل يعرف ربه بأسمائه وصفاته، ويرجو رحمته ويخاف عدله.

الإشفاق يحرس الإنسان من الثقة الزائدة بنفسه؛ فالعمل الصالح إذا لم يصحبه افتقار قد يتحول إلى مادة للغرور، ولهذا كان الصالحون أشد الناس خوفاً من عدم القبول مع كثرة أعمالهم، لأنهم لم ينظروا إلى حجم ما قدموا، بل إلى عظمة من قدموا له.

الآية الثامنة والعشرون

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾

هذه ليست دعوة إلى القنوط، بل هدمٌ لوهم الضمان الكاذب؛ المؤمن يرجو الله رجاءً عظيماً، لكنه لا يوقع لنفسه شهادة النجاة قبل انتهاء الطريق.

﴿غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾؛ لأن القلب يتقلب، والعمل يحتاج إلى قبول، وانخواتيم مجهولة لنا، ولذلك يبقى المؤمن بين الرجاء والخوف، لا يسقطه خوفه في اليأس ولا يرفعه رجاءه إلى الغرور.

سُورَةُ الْمَعَارِجِ | حِينَ يَصْعَدُ الْقَلْبُ فَوْقَ ضَيْقِ الْأَرْضِ

وقد يكون من أخطر أمراض التدين أن يشعر الإنسان أن كثرة معرفته أو ماضيه الصالح أعطياه حصانة نهائية، فإذا حصّن نفسه من الخوف انفتح عليه باب الإعجاب والاستعلاء، أما المؤمن الحقيقي فيظل يقول بعمله: ما زلت محتاجاً إلى رحمتك يا رب.

وهكذا يصير الخوف نفسه نوعاً من الحراسة، لا لأنه يحرم القلب من الطمأنينة، وإنما لأنه يمنعه من النوم على حافة الطريق.

الآية التاسعة والعشرون

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾

بعد المال والآخرة يأتي باب شديد الاتصال بجسد الإنسان وشهوته: العفة؛ وكأن القرآن يبني الشخصية المؤمنة من جميع جهاتها، فلا يكفي أن تكون الروحانية عاليةً والحدود الأخلاقية منهرة، ولا يكفي أن يخشع الإنسان في المسجد ثم يستسلم لهواه خارجه.

﴿حَافِظُونَ﴾؛ والحفظ كلمة تدل على يقظة مستمرة، لأن الشهوة ليست حادثة تأتي مرة ثم

تنتهي، وإنما قوة ركبها الله في الإنسان لحكمة، وتحتاج إلى توجيه لا إلى إنكار، وإلى حدود لا إلى فوضى.

سُورَةُ الْمَعَارِجِ | حِينَ يَصْعَدُ الْقَلْبُ فَوْقَ ضَيْقِ الْأَرْضِ

العفة في الإسلام ليست احتقاراً للجسد، بل احترامٌ له إلى درجة ألا يُترك لكل نزوة، وليست حرباً على الرغبة، بل وضع الرغبة في الموضع الذي جعله الله لها؛ لأن الحرية ليست أن تفعل كل ما تقدر عليه، وإنما أن تكون قادراً على أن تقول لنفسك: لا حين ينبغي أن يقال لا.

وما أكثر من ظن الحرية سقوط الحدود، فإذا هو عبد لشهوة لا يستطيع مخالفتها؛ والقرآن يريد إنساناً يملك شهوته، لا شهوة تملك إنساناً.

الآية الثلاثون

﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾

لا يطلب القرآن إلغاء الفطرة، بل يمنحها طريقاً مشروعاً؛ فالدين الذي يأمر بالحفظ هو نفسه الذي يقرر أن الإشباع في موضعه غير ملوم، وهذا التوازن من جمال الشريعة: لا انفلات يجعل الإنسان أسير الغريزة، ولا رهبانية تتعامل مع الغريزة وكأن وجودها خطيئة.

وفي ذكر الزوجية تذكيراً بأن الشهوة في التصور القرآني ليست فعلاً معزولاً عن الأخلاق، بل تدخل في بناء علاقة وميثاق ومسؤولية وحقوق؛ فلا يُنتزع الجسد من سياقه الإنساني، ولا يُختزل الآخر إلى أداة لذة.

سُورَةُ الْمَعَارِجِ | حِينَ يَصْعَدُ الْقَلْبُ فَوْقَ ضَيْقِ الْأَرْضِ

وأما ما ملكت الأيمان فهو حكمٌ مرتبطٌ بالنظام الاجتماعي والتشريعي التاريخي الذي كان قائماً يوم نزول القرآن، وقد انقضى في واقعنا بانقضاء نظام الرق؛ وتبقى دلالة الآية في وضوح الأصل: الإشباع المشروع له حدوده، وما وراءها ليس حرية بل اعتداء على الحد.

الآية الحادية والثلاثون

﴿مَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾

المسألة ليست أن يشعر الإنسان بالرغبة، وإنما أن يبتغي وراء الحد؛ فالعدوان يبدأ حين لا يعود الإنسان يقبل أن تكون لرغبته حدود.

وكلمة ﴿الْعَادُونَ﴾ تعيد تعريف بعض ما قد تسميه الثقافات تحرراً؛ فليس كل تحرر من قيد تقدماً، فقد يتحرر النهر من ضفتيه فيصبح فيضاً، ويتحرر الإنسان من بعض الحدود فيخسر شكل إنسانيته.

الحدود ليست دائماً خصم الحرية؛ بعضها هو الذي يحفظ الحرية من أن تأكل نفسها. ومن العجيب أن السورة التي بدأت بالهلع تصل هنا إلى الشهوة، لأن الجذر واحد: النفس تريد أن تحصل فوراً على ما تشتهي، وأن تدفع فوراً ما تكره، والإيمان يعلمها القدرة على

سُورَةُ الْمَعَارِجِ | حِينَ يَصْعَدُ الْقَلْبُ فَوْقَ ضَيْقِ الْأَرْضِ

الاحتمال والتأجيل والانضباط؛ ولذلك فالصبر ليس فقط احتمال المصيبة، بل هو أيضاً القدرة على ألا تعطي كل رغبة جوابها فوراً.

الآية الثانية والثلاثون

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾

بعد حفظ الجسد يأتي حفظ الحقوق؛ فالمؤمن ليس إنساناً صالحاً في خلوته فقط، بل هو جدير بالثقة في حياة الناس.

الأمانات واسعة: مالٌ وضع في يدك، وسرٌّ أودع عندك، ومسؤوليةٌ حملتها، ووظيفة، وطفل، وعلم، وكلمة، وسلطة، ووقت، وكل ما جعلك الله أو الناس قائماً عليه.

أما العهد فهو صورةٌ أخرى من اختبار الوفاء؛ فما أسهل الكلام في لحظة الرضا، وما أصعب أن تبقى للكلمة حرمتها بعد تغير الظروف.

والتعبير ﴿رَاعُونَ﴾ في غاية الجمال؛ فالراعي لا يترك ما يرعاه ثم يعود إليه بعد ضياعه، بل يظل يقظاً عليه، وكأن الأمانة كائنٌ حي يحتاج إلى مراقبة.

سُورَةُ الْمَعَارِجِ | حِينَ يَصْعَدُ الْقَلْبُ فَوْقَ ضَيْقِ الْأَرْضِ

الدين هنا ينتقل من المحراب إلى السوق والبيت والمؤسسة والعقد؛ لأن الصلاة التي لا تجعل صاحبها أكثر أمانة لم تبلغ بعد تمام أثرها الأخلاقي.

الآية الثالثة والثلاثون

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾

أن تقوم بالشهادة يعني أن تقف مع الحقيقة ولو كان الوقوف مكلفاً؛ فالشهادة ليست نقل معلومة فحسب، وإنما حملٌ للحق في لحظةٍ قد تدعوك فيها المصلحة إلى تحريفه أو كتمانها.

وقال ﴿قَائِمُونَ﴾، وهي كلمة توحى بالثبات؛ لأن الحقيقة تحتاج أحياناً إلى ساقين ثابتتين، لا مجرد لسان يعرفها.

كم من الناس يعرف الحق لكن الخوف يجلس به، أو المصلحة تثنيه، أو القراية تميله، أو الكراهية تدفعه إلى الزيادة والنقص؛ أما المؤمن فتربيه الآخرة على أن الحقيقة لا تتغير لأن المتهم صديقه أو عدوه.

سُورَةُ الْمَعَارِجِ | حِينَ يَصْعَدُ الْقَلْبُ فَوْقَ ضَيْقِ الْأَرْضِ

والحضارة نفسها لا تستقيم بلا شهادة صادقة؛ فحين ينهار الصدق تنهار المحاكم، والمعاملات، والتاريخ، والعلاقات، ولذلك ليست شهادة الحق فضيلة فردية صغيرة، بل عموداً من أعمدة العمران الأخلاقي.

الآية الرابعة والثلاثون

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾

بدأت صفات الناجين بالصلاة، وعادت لتنتهي بالصلاة؛ ﴿عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ في البداية، و﴿عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ في النهاية، وكأن جميع الصفات بينهما محفوظة بين قوسين من الصلاة.

الدوام يحفظ استمرار الصلاة، والحفاظة تحفظ حدودها ووقتها وهيبتها، فكأن المطلوب ليس فقط ألا تتركها، بل ألا تتركها تذبل وهي ما تزال موجودة في جدول حياتك.

وقد يحافظ المرء على شكل العبادة ويهمل روحها، أو يحب معناها ويهمل وقتها، والقرآن يجمع الجانبين: عبادة مستمرة محفوظة.

سُورَةُ الْمَعَارِجِ | حِينَ يَصْعَدُ الْقَلْبُ فَوْقَ ضَيْقِ الْأَرْضِ

وفي عودة الصلاة أخيراً رسالة عميقة: كل ما اكتسبته من صدقٍ وعفةٍ وكرمٍ وأمانةٍ يحتاج إلى مصدرٍ يعيد تغذيته، والصلاة هي الموعد المتكرر الذي يعود فيه الإنسان إلى الأصل، ليغسل عن قلبه غبار الطريق قبل أن يستحكم.

الآية الخامسة والثلاثون

﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾

بدأ الفصل بإنسانٍ هلوع، وانتهى بإنسانٍ مكرم.

وبين الكلمتين رحلة التربية كلها.

لم تغير الصلاة أصل بشريته، لكنها هذبت خوفه، ولم يخرج المال من حياته، لكنه لم يعد سيد قلبه، ولم تختف الشهوة، لكنها وُضعت في حدها، ولم تنته المسؤوليات، لكنها تحولت إلى أماناتٍ مرعية، ولم تعد الآخرة فكرةً بعيدة، بل أصبحت نوراً يضبط القرار.

ثم كانت النتيجة: ﴿فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾.

سُورَةُ الْمَعَارِجِ | حِينَ يَصْعَدُ الْقَلْبُ فَوْقَ ضَيْقِ الْأَرْضِ

لم يقل فقط: داخلون الجنة؛ بل مكرمون، لأن القضية من أول السورة كانت قضية الإنسان الذي أهانه هلعه حين جعله عبداً للخوف والمنع والشهوة، ثم أعاد الإيمان إليه كرامته، حتى انتهى به إلى كرامةٍ لا تزول.

يا لها من مقابلة: الإنسان الذي كان يخشى أن ينقص ماله يعطي، والذي كان يجزع من الشر يصلي، والذي كانت نفسه تريد تجاوز الحدود يحفظ، والذي كان يستطيع خيانة الأمانة يرعى، والذي كان بإمكانه كتمان الحق يقوم بالشهادة؛ لقد لم يعد أسير أول اندفاع يصعد من داخله، وهذه هي إحدى أعظم صور الحرية التي يصنعها القرآن في الإنسان.

إن الكرامة في السورة ليست لقباً يُعطى للإنسان لمجرد كونه إنساناً، بل مقامٌ أخروي يبلغه حين يستجيب لتربية الله فيه؛ وكل سجدة كانت درجة، وكل صدقة كانت درجة، وكل خوف من الله رده عن معصية كان درجة، وكل شهوة وقف عند حدها كانت درجة، وكل أمانة حفظها كانت درجة، حتى اكتمل معارج القلب الذي بدأت السورة تومئ إليه من اسمها.

وهكذا نكتشف أن «المعارج» ليست صورةً في السماء وحدها؛ هناك معارج تمتد داخل الإنسان نفسه، وأن الصلاة أول درجاتها وآخر حراسها.

سُورَةُ الْمَعَارِجِ | حِينَ يَصْعَدُ الْقَلْبُ فَوْقَ ضَيْقِ الْأَرْضِ

لكن السورة لم تنتهِ بعد؛ فبعد أن رسمت الإنسان المؤمن في أجمل صورة، تلتفت من جديد إلى أولئك الذين كانوا يحيطون بالنبي ﷺ مسرعين بأجسادهم إليه، مستهزئين بقلوبهم عنه، وتكشف وهماً آخر شديد الخفاء: أن يظن الإنسان أنه يستطيع أن يدخل جنة الله بلا طريق الله.

ومن هنا يبدأ الفصل الرابع:

حين تتحول الأمنية إلى استحقاقٍ كاذب

ولماذا لا تُفتح الجنة لمن لم يصعد معارجها؟

الفصل الرابع

حين يركضُ الجسدُ نحوَ النورِ ويقتبِ القلبُ بعيداً

وهمُ الاستحقاق، وسقوطُ الغرور، والمشهد الأخير

الآيات: 36 - 44

بعد أن انتهت السورة من رسم ملامح الإنسان الذي استطاع أن يصعد فوق هلعه، ويحرس صلاته، ويحرر ماله من الشح، ويضبط شهوته، ويرعى أماناته، ويقوم بشهادته، ويصدق باليوم الآخر حتى صار من أهل الكرامة، تلتفت فجأةً إلى صورةٍ أخرى تناقض هذا البناء كله: أناسٌ يسرعون نحو النبي ﷺ بأجسادهم، يحيطون به، يتطلعون، ويتجمعون، ولكن قرب المكان لم يصنع قرباً من الحقيقة؛ وكأن السورة تريد أن تكشف وهماً دينياً وإنسانياً بالغ الخطورة: ليس كل من اقترب من النور قد استنار، وليس كل من كان قريباً من أهل الحق كان من أهل الحق، فالمسافات التي تقاس بالأقدام أهون كثيراً من المسافات التي تقع بين القلب والحقيقة.

﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكْ مُهْطِعِينَ﴾

تبدأ الآية بسؤالٍ يفصح المشهد: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ ما شأنهم؟ ما الذي يدفعهم إلى هذه الحركة السريعة نحوك؟ إنهم مهطعون، مسرعون مقبلون بأبصارهم وأجسادهم، ولكن هذا الإقبال الخارجي لا يشبه الإقبال الذي تصنعه الهداية، لأن القلب ما يزال في الجهة الأخرى.

وهذه صورةٌ تفتح باباً واسعاً للتأمل في طبيعة القرب من الدين؛ فقد يكون الإنسان قريباً من القرآن تلاوةً، بعيداً عنه أثراً، قريباً من المسجد مكاناً، بعيداً عنه خلقاً، قريباً من العلماء مجالسةً، بعيداً عن العلم امتثالاً، وقد يحمل في جيبه كتب الهداية بينما تحمل حياته مناقضتها؛ فالقرب المكاني لا يضمن شيئاً ما لم يتحول إلى قربٍ وجداني وأخلاقي.

إن أخطر صور البعد أن يلتبس على صاحبه بسبب كثرة مظاهر القرب؛ أن يظن أنه بخير لأنه يسمع الموعظة كثيراً، أو يشارك في المجالس، أو يعرف ألفاظ الدين، بينما لم يتغير في عمق نفسه شيء؛ فالوحي لا يقيس المسافة بينك وبينه بعدد الصفحات التي قرأتها، بل بمقدار ما أسقط من كبرك، وأصلح من خوفك، وهذب من شحك، وأقام من صدقك.

سُورَةُ الْمَعَارِجِ | حِينَ يَصْعَدُ الْقَلْبُ فَوْقَ ضَيْقِ الْأَرْضِ

ولذلك جاءت الآية بعد صفات المؤمنين مباشرة؛ لتقول في صمتٍ بليغ: هؤلاء الذين رأيتم

قبل قليل لم يكتفوا بالقرب من الوحي، بل تشكّلوا به.

الآية السابعة والثلاثون

﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ غِزِينَ﴾

يتوزعون حول النبي ﷺ جماعاتٍ جماعات، عن اليمين وعن الشمال، كأن المشهد ممتلئ

بالحركة والازدحام، لكن هذا الازدحام لا يصنع إيماناً؛ وقد يكون الإنسان وسط الجماعة

أكثر وحدةً من المؤمن الصادق في خلوته، لأن الكثرة لا تمنح القلب حقيقةً لا يحلمها.

وكلمة ﴿غِزِينَ﴾ ترسمهم فرقاً متفرقة، وهنا ملهٌ عجيب: الجسد قريب، والجماعة حاضرة،

لكن القلوب متفرقة عن مركز الوحي؛ وهذا يعلّنا أن الوحدة الحقيقية لا تبدأ من أن

يقف الناس في صف واحد، بل من أن تتجه قلوبهم إلى مرجع واحد.

وكم من مجتمعات امتلأت ساحاته بالناس لكنه افتقد المعنى الجامع، وكم من جماعة رفعت

شعاراً واحداً بينما حملت النفوس داخلها أهواء كثيرة؛ فالقرآن لا يخدع بصورة الجمع، بل

يسأل دائماً: على أي حقيقة اجتمعتم؟

سُورَةُ الْمَعَارِجِ | حِينَ يَصْعَدُ الْقَلْبُ فَوْقَ ضِيقِ الْأَرْضِ

إن الاجتماع حول الحق لا يكفي إن لم يكن الاجتماع على الحق.

الآية الثامنة والثلاثون

﴿يَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾

هنا تكشف مفارقة النفس المدهشة: إنسان يرفض طريق الجنة، ثم يطمع في الجنة؛ يعرض عن التكليف، لكنه لا يعرض عن المكافأة؛ يرفض أن تتدخل الحقيقة في شهوته وماله وكبره، لكنه يريد في النهاية أن يكون من أهل النعيم.

﴿يَطْمَعُ﴾؛ فالطمع هنا ليس رجاءً مؤمناً، بل أمنيةً بلا ثمن، وفرقٌ عظيم بين من يرجو الله وهو يسير إليه، ومن يتنى رحمته وهو مصرٌّ على السير بعيداً عنه.

وهذا المرض لا يخص مكذبي الرسالة وحدهم؛ قد يتسلل إلى النفس المؤمنة بصورة أخف، حين تريد ثمرةً بلا غرس، وطمأنينةً بلا صلاة، ونوراً بلا مجاهدة، ومغفرةً بلا توبة، وكرامةً بلا استقامة؛ وكأن الإنسان يريد من الدين أن يكون ضماناً لا طريقاً.

سُورَةُ الْمَعَارِجِ | حِينَ يَصْعَدُ الْقَلْبُ فَوْقَ ضَيْقِ الْأَرْضِ

لكن الجنة ليست رشوة تُعطى للإنسان لأنه أحب فكرتها، وإنما دار كرامة لمن سار طريق العبودية؛ لا لأن الأعمال تساويها ثمنًا مستقلًا عن رحمة الله، بل لأن رحمة الله لا تجعل التكليف عبثًا ولا الإعراض والتسليم سواء.

الآية التاسعة والثلاثون

﴿كَأَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾

تأتي ﴿كَأَلَّا﴾ مرةً أخرى لتكسر الوهم؛ ليست الجنة ثمرة النسب، ولا الحضور، ولا مجرد

الطمع، ثم يرد القرآن الإنسان إلى أصلٍ شديد التواضع: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾.

إنه ردُّ ساحق على الكبر؛ الإنسان الذي يتعالى، ويرى لنفسه استحقاقًا خاصًا، ويظن أنه

أعلى من أن يخضع، يكفي أن يتذكر أصله حتى تسقط كثير من أوهامه.

القرآن يعيد الإنسان مرارًا إلى البداية؛ ليس لإهانتها، بل لتحريره من وهم العظمة الكاذبة،

فكلما نسي أصله تضخم في نفسه، وكلما عرفه تواضع لخالقه.

سُورَةُ الْمَعَارِجِ | حِينَ يَصْعَدُ الْقَلْبُ فَوْقَ ضِيقِ الْأَرْضِ

ومن أعظم أبواب النجاة أن يعرف الإنسان قدره الحقيقي: مخلوقٌ من مادة ضعيفة، يحمل جسداً محدوداً، ويعيش زمناً محدوداً، ولا يملك أن يضمن لنفسه نبضةً واحدة؛ ثم بعد ذلك كله يطلب منه الله أن يرتقي بالإيمان حتى يكون مكرماً في الجنات.

فأي كرامةٍ أعظم من أن يرفع الله هذا الأصل الضعيف إلى ذلك المصير العظيم؟

الآية الأربعون

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾

ثم يتسع المشهد من الإنسان إلى الكون مرةً أخرى: المشارق والمغارب؛ ليست جهةً واحدة ثابتة، بل مشاهد متجددة، شروقٌ يتكرر، وغروبٌ يتكرر، وأفقٌ تبدل عليه المواضع، وكل ذلك تحت ربوبية واحدة.

إن الذي يملك المشارق والمغارب يملك البدء والنهاية، ويملك الإظهار والإخفاء، ويملك أن يطلع أمةً وأن يغيب أخرى، وأن يشرق على إنسان بالهداية أو يتركه في ظلمات اختياره؛ فالسورة التي تكلمت أولاً عن المعارج تعيد الآن الإنسان إلى حركة الكون لتقول له: أنت تعيش داخل ملكٍ لا تتوقف فيه القدرة لحظة.

سُورَةُ الْمَعَارِجِ | حِينَ يَصْعَدُ الْقَلْبُ فَوْقَ ضِيقِ الْأَرْضِ
﴿إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾ ؛ وهنا تنهار كل فكرة تجعل بعث الناس أو تبديلهم أمراً بعيداً، فالذي يكرر

أمامك الشروق والغروب كل يوم لا يعجزه أن ينشئ خلقاً آخر.

وما أكثر ما يحتاج الإنسان أن يقرأ الكون بوصفه برهاناً متجدداً على القدرة؛ فكل صباح ليس مجرد موعد زمني، بل شهادة، وكل غروب تذكير بأن الذي يدخل النور في الظلمة والظلمة في النور قادرٌ على أن يقلب أحوالاً نظنها ثابتة.

الآية الحادية والأربعون

﴿عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾

تأتي هذه الآية لتنسف غروراً آخر: وهم أن الله محتاجٌ إلى أحد.

﴿نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ ؛ فإذا رفض قومٌ طريق الله، فلن يتوقف أمره عليهم، وإذا أعرض جيلٌ جاء غيره، وإذا خان حامل الرسالة أمانتها حملها آخر، فالله لا يتوقف مشيئته على قبول أحد.

وهذه الآية من أشد الآيات تربيةً لكل صاحب رسالة أو دعوة أو علم؛ فلا يجعل نفسه مركز الدين، ولا يظن أن بقاء الحق متعلقٌ بشخصه، لأن أعظم ما يحفظ الإنسان من

سُورَةُ الْمَعَارِجِ | حِينَ يَصْعَدُ الْقَلْبُ فَوْقَ ضَيْقِ الْأَرْضِ

الطغيان الروحي أن يعرف أنه مستخدم لا مُستغنى عنه؛ إن صدق شرفه الله بالخدمة، وإن أعرض مضت الرسالة وبقي هو في خسارته.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾؛ لا أحد يفلت من قدرة الله، ولا أحد يعجزه، ولا يستطيع التاريخ أن يفاجئه بما لم يكن في علمه، ولا تستطيع قوة في الأرض أن تسبق إرادته.

وفي هذه الجملة وحدها ما يكفي لسكينة قلب المؤمن: قد تُسبق أنت، ويخطط خصمك أسرع منك، وتتغير الظروف دون إذتك، لكن ربك لا يُسبق.

الآية الثانية والأربعون

﴿فَذَرَّهُمْ يُخَوِّضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يَلْقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾

بعد البيان والمجزة يأتي الأمر: ﴿فَذَرَّهُمْ﴾؛ وليس معنى ذلك ترك البلاغ، بل بعد أن قامت المجزة لا تجعل قلبك رهينةً لضجيج من اختار الاستهزاء.

﴿يُخَوِّضُوا وَيَلْعَبُوا﴾؛ جمع بين الخوض واللعب، لأن كثيراً من الباطل يبدأ لعباً ثم يتحول إلى طريقة حياة، ويبدأ استهزاءً عابراً ثم يصبح غطاءً يهرب به الإنسان من مواجهة الحقيقة.

سُورَةُ الْمَعَارِجِ | حِينَ يَصْعَدُ الْقَلْبُ فَوْقَ ضِيقِ الْأَرْضِ
والخوض حركةً بلا هدى، واللعب انشغالٌ بما لا يبقى؛ وكأن الآية تختصر مأساة الإنسان
حين يبدد عمره في ضجيج لا يصنع له مصيراً.

أما ﴿حَتَّى يَلْقَا يَوْمَهُمْ﴾ فهز القلب؛ اليوم قادم إليهم وهم ذاهبون إليه، واللقاء واقع ولو لم
يفكروا فيه.

إن أعظم خسارة ليست أن تموت، بل أن تمضي إلى الموت وأنت تلعب بالحياة التي كان
يمكن أن تبني بها أبديتك.

الآية الثالثة والأربعون

﴿يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانَهُمْ إِلَى نُصْبٍ يُوفُضُونَ﴾

يعود المشهد إلى القيامة، ولكن هذه المرة بعد أن عرفنا كل شيء عن الإنسان؛ نراه يخرج
من قبره سريعاً، كأن قوة تسوقه إلى موعد لا يستطيع أن يتأخر عنه.

والمفارقة لافتة: كانوا في الدنيا يبطئون عن الاستجابة، فإذا بالآخرة لا تسمح لهم بالبطء؛
كانوا يؤجلون الصلاة والتوبة والرجوع، فإذا هم يخرجون سراعاً إلى الحساب.

ما الذي تغير؟ لم تعد الإرادة تملك فسحة التأجيل.

سُورَةُ الْمَعَارِجِ | حِينَ يَصْعَدُ الْقَلْبُ فَوْقَ ضَيْقِ الْأَرْضِ

وهذه واحدة من أعظم نعم الدنيا التي لا نشعر بها: أنك اليوم تستطيع أن تتوقف، أن تغير الاتجاه، أن تحو ذنباً بتوبة، أن تصلح ظلماً، أن ترد أمانة، أن تسجد بعد غفلة؛ أما غداً فسيكون هناك سيرٌ بلا اختيار.

وهكذا نفهم أن الحرية الحقيقية ليست أن تفعل اليوم ما تشاء، بل أن تستعمل قدرتك على الاختيار قبل أن يأتي يوم لا يبقى فيه إلا الجزاء.

الآية الرابعة والأربعون

﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهُهُمْ ذِلَّةً ذَلَّكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾

هنا ينتهي كل شيء عند البصر؛ بدأوا يرون العذاب بعيداً، وانتهوا بأبصار خاشعة أمامه.

يا لها من خاتمة دقيقة: المشكلة في أول السورة كانت في الرؤية، ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾، وهنا تصححت الرؤية، ولكن بعد أن انتهى زمن الانتفاع بها.

﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ﴾؛ العين التي كانت ترتفع استكباراً انخفضت ذلاً، والنفس التي كانت

تتعامل مع الوعيد كلعب أصبحت الحقيقة أثقل من أن ترفع إليها رأسها.

سُورَةُ الْمَعَارِجِ | حِينَ يَصْعَدُ الْقَلْبُ فَوْقَ ضِيقِ الْأَرْضِ
﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾؛ الذلة لا تحيط بالملاح وحدها، بل تغشى الكيان، لأن الإنسان إذا رفض
أن يذل لله اختياراً في الدنيا ذل للحقيقة اضطراراً في الآخرة، وما بين السجودين فرق هائل:
سجدة يختارها المؤمن فتورثه الكرامة، وخضوعٌ يأتي بعد فوات الاختيار فلا يزيد صاحبه إلا
حسرة.

ثم تأتي الجملة الأخيرة: ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾.

ذلك اليوم الذي سمعوا عنه. ذلك اليوم الذي رأوه بعيداً. ذلك اليوم الذي ضحكوا من
ذكره. ذلك اليوم الذي خاضوا ولعبوا قبل مجيئه. صار الآن أمامهم، بلا مسافة.
وهكذا تغلق السورة دائرتها بإحكام مذهش: بدأت بسائلٍ يسأل عن عذاب واقع، وانتهت
بيوم الوعد حاضراً؛ وبين السؤال والجواب مرت رحلة الإنسان كلها، من الغرور إلى
الانكشاف، ومن الهلع إلى إمكان النجاة، ومن الصلاة إلى الكرامة، ومن الاستهزاء إلى
خشوع الأبصار.

معراج القلب من الهلع إلى الكرامة

سورة المعارج لا تريد منك أن تنظر إلى السماء فقط، بل أن تنظر إلى نفسك؛ فالسماء فيها معارج، لكن قلبك أيضاً يحتاج إلى معارج، والمشكلة الكبرى ليست أن الإنسان خلق ضعيفاً أو هلوفاً، وإنما أن يرضى أن يبقى كذلك بعد أن فتح الله أمامه طريق الارتفاع.

لقد بدأت السورة بإنسانٍ يستعجل العذاب لأنه لا يفهم زمن الله، ثم أمرت النبي ﷺ بالصبر الجميل لأن المؤمن لا يقيس صدق الوعد بسرعة تحققه، ثم هدمت السماء والجبال والعلاقات والأموال أمام عين الإنسان حتى لا يبقى له ملجأ إلا الحقيقة، ثم دخلت إلى قلبه وكشفت أنه جزوع عند الشر ومنوع عند الخير، وبعد ذلك لم تتركه عارياً أمام ضعفه، بل قالت له: صلِّ، ثم أعطِ، وصدِّق، واخش، واحفظ، وارع، واشهد، وحافظ؛ اصعد درجةً بعد درجة حتى تنتقل من الإنسان الهلوع إلى الإنسان المكرم.

وهذا هو السر العميق في بناء السورة: أنها لا تعالج الخوف بإلغاء أسبابه، وإنما يربط القلب بمن فوق الأسباب؛ ولا تعالج الشح بشعارات الكرم، وإنما بتدريب اليد على العطاء؛ ولا

سُورَةُ الْمَعَارِجِ | حِينَ يَصْعَدُ الْقَلْبُ فَوْقَ ضَيْقِ الْأَرْضِ

تعالج الشهوة بكراهية الجسد، وإنما بحفظ الحدود؛ ولا تعالج القلق على المستقبل بإعطاء الإنسان خريطة الغد، وإنما بتعليمه الثقة برب الغد.

وفي وسط كل هذا تقف الصلاة كالمعراج الأكبر للروح؛ تبدأ بها صفات الناجين وتنتهي بها، لأن الإنسان حين يترك الصلاة لا يفقد حركةً جسديةً فحسب، بل يفقد الموعد الذي يعيد فيه ترتيب الكون داخل قلبه: الله أكبر من الخوف، أكبر من المال، أكبر من الشهوة، أكبر من الخصم، أكبر من الغد، أكبر من كل شيء يهدد بأن يصبح إلهاً صغيراً في داخله. والسورة تضعنا أمام سؤال لا يمكن الهروب منه: أيُّ شيءٍ فينا ما يزال يراه بعيداً؟ الموت؟ الحساب؟ التوبة؟ التغير؟ وهل ما نراه بعيداً سيبقى بعيداً حقاً، أم أننا سنستيقظ ذات يوم لنجد أن المسافة انكمشت فجأةً، وأن الذي كان وعداً أصبح حضوراً؟

من أجل ذلك كان الصبر الجميل في قلب السورة الأولى، وكانت الصلاة في قلب علاج النفس، وكانت الكرامة في نهاية طريق المؤمنين؛ فالمؤمن لا ينتصر لأنه لم يعرف الخوف، بل لأنه عرف إلى أين يرفعه، ولا لأنه لم يشعر بالهلع، بل لأنه لم يترك الهلع يقوده، ولا لأنه ملك الدنيا، بل لأنه لم يسمح للدنيا أن تملكه.

إنها سورةٌ تقول للإنسان: لا تبقَ في سفح نفسك.

سُورَةُ الْمَعَارِجِ | حِينَ يَصْعَدُ الْقَلْبُ فَوْقَ ضَيْقِ الْأَرْضِ

فوق خوفك معراج. فوق شكك معراج. فوق شهوتك معراج. فوق استعجالك معراج. فوق

وهمك أن الأشياء بعيدة معراج. وكل درجة فيه تبدأ من عبودية صادقة، حتى يصل القلب

إلى تلك الجملة التي تختصر غاية الرحلة كلها:

﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَّمُونَ﴾.